إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السابعة ـ العدد السادس والعشرون ـ صيف ١٣٩٦ش / حزيران ٢٠١٧م
صص ٥٩ ـ ٣٧

رثاء الأولاد بين ابن نباتة المصرى والخاقانى الشروانى؛ دراسة مقارنة

عبدالقادر پريز (الكاتب المسؤول)*
حامد كمالى مسكونى**

الملخص

يعتبر ابن نباتة المصرى من شعراء العصر المملوكى الذى اتجه إلى غرض الرثاء وذلک لأنه واجه وفاة أحبائه من أبنائه وزوجته وجارته فى حياته الشخصية وصوّر فى شعره الرثائى مدى الفاجعة وأثرها عليه. رثاء ابن نباتة لأولاده يتصف بالأوصاف الصادقة وينبع من ألم الفراق، فرثاهم بقلب مفجوع حيث كاد قلبه يتفجر من الحزن. من ناحية أخرى نرى أن الشاعر الفارسى "الخاقانى الشروانى" يرثى أحبائه وأقربائه الذين فارقوا الحياة. إنه فقد ابنه أمير رشيد الدين وذلک دفع الشاعر إلى إنشاد قصائد رثائية التى سميت أبرزها "بترنم المصائب." من خلال هذه الدراسة نهدف إلى مقارنة الرثاء وخصائصه فى شعر ابن نباتة المصرى والخاقانى الشروانى على أساس المدرسة الأمريكية للأدب المقارن للإجابة على بعض الأسئلة، منها: كيف تكون القصائد الرثائية للشاعرين، وأيهما الأفضل فى هذا الغرض؟ وما هو وجوه التفارق والتشابه بين مراثى الشاعرين لأولادهما؟ وحصلت نتائج البحث على أن الخاقانى تفوق نظيره العربى فى رثائه لأولاده حيث أن الخاقانى يبرز العواطف الإنسانية فى رثائه أكثر من ابن نباتة وقام الخاقانى بالإبداع فى هذا الفن.

الكلمات الدليلية: رثاء الأولاد، ابن نباتة المصرى، الخاقانى الشروانى، مقارنة الشعر العربى والفارسى.

---

*. أستاذ مساعد فى اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران.
ghpariz@yahoo.com
**. خريج مرحلة الماجستير فى اللغة العربية وآدابها، جامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران.
تاريخ الاستلام: ١٣٩٦/٢/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٦/٦/٢٤ش

المقدمة

تعددت أغراض الشعر فى الأدب العربى والفارسى ومنها الرثاء الذى يقول فى خصائصه حازم القرطاجنى: «وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجى الأقاويل مبكى المعانى مثيرا للتباريح وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة فى وزن متناسب ملذوذ وأن يستفتح فيه الدلالة على المقصد ولايصدر بنسيب لأنه مناقض لغرض الرثاء.» (القرطاجنى، لاتا: ٣٥١) هذا بالنسبة للرثاء بصورة عامة أما حينما نصل إلى الرثاء للابن فنرى أنه فلذة كبد والده وسنده الذى يكنى به والذى ينال الرحمة بالدعاء منه. يقول عبدالرشيد عبدالعزيز فى هذا السياق ويضيف: «والذى لاشک فيه أن رثاء الأهل فى الشعر نابض بالحياة ورثاء الأبناء اشّد لوعة وألما وحرقة.» (سالم، ١٩٨٨: ١٤) دليل هذا الموضوع يرجع إلى أن الإنسان يشعر بأن ابنه وأولاده جزء منه يرفع شأنه ويعنى قدره فكيف يشعر بفقدانه وكم من الكلمات المنظومة تكفى لرثائه وهل تشفى غليل أب يحترق فؤاده ويبكى من صميم قلبه. ونرى ابن رشيق القيروانى يقول فيه: «ومن أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات.» (القيروانى، ١٩٨٨: ١٥٤/٢)

لأن المجال يضيق فى ذكر محاسن الطفل وأعماله وعلمه وشجاعته لأنه مازال صغيرا أما إذا كان كبيرا فذلک حسن فى الرثاء ويجيد الأب فى رثاء ابنه لأنه يوقل الرثاء وفؤاده يحترق حزنا على ولده.

فالرثاء هو البكاء على الميت وذكر محامده والنوح والتأسف على موته فلهذا يمكن القول بأن الرثاء هو الشعر الذى يقال فى الميت الذى فارق الحياة.حظى رثاء الأولاد والأبناء باهتمام كثير من قبل شعراء اللغتين العربية والفارسية حيث نكاد نراهم يفقدون أبنائهم حتى يلجأون إلى رثائهم بأشعار محزنة ويقصدون بإنشاد هذا النوع من الشعر أن تتسلى أنفسهم من جانب ويحيون ذاكرة الفقيد فى الأذهان من جانب آخر. ليس هؤلاء بقليل لا فى الأدب الفارسى ولا فى الأدب العربى فنرى فى الأدب الفارسى "الخاقانى الشروانى" الذى يتوسل برثاء ولده الذى فارق الحياة فى عنفوان حياته باسم "رشيد الدين" لتتسلى نفسه. فالشاعر يعبر عن أحزانه التى سخرت كل جسمه ونفسه

فى قصائد رثائية أليمة، قصائد تظهر مدى أثر موت ولد الشـاعر فيه وطريقة تفاعله مع هذه الفاجعة الحزينة. أما فى الأدب العربى فنرى مثلا ابن نباتة المصرى شـاعر العصر المملوكـى الذى فقد أبنائه فى حياتـه وأرغمه الدهر بالبكاء والنـوح على موتهم. فهو كالخاقانى اتجه إلى القصائد الرثائية للتعبير عن أحزانه النفسية فى موت أحبائه.

أسئلة البحث

أما الأسئلة التى دفعت الباحثين إلى اختيار هذا الموضوع فهى:

ما هو اتجاه الشاعرين فى قصائدهما الرثائية؟

أيهما الأفضل فى هذا الغرض؟

ما هو وجوه التفارق والتشابه بين مراثى الشاعرين لأولادهما؟

الفرضيات

يبدو أنّ كل ما يسـيطر على رثاء الأولاد فى شـعر الخاقانى هو التعبير عن الحزن والحـداد ودعوة الجميع بالحداد على المتوفى مع أنه يسـيطر الاتجاه الفردى على رثاء ابن نباتة لأولاده.

إن رثاء الخاقانى لولده يتمتع بالصور البديعية والتصاوير الإبداعية التى لا أثر لها فى رثاء ابن نباتة لأولاده فالفضل فى هذا الغرض يرجع إلى الخاقانى.

يوجد بين مراثى الشـاعرين لأولادهمـا وجوه التفارق والتشـابه ومن أهم وجوه التشـابه بين مراثى الشـاعرين هو تشـبيه الأولاد المتوفية بالمظاهر المختلفة والشعور بالذنـب ومن وجوه الافتراق بين مراثيهما هو الاتجاه فى الرثاء والأسـلوب الخطابى وعمق الرثاء.

خلفية البحث

تمت دراسات كثيرة فى موضوع رثاء الأولاد فى شعر شعراء العرب والفرس وكذلك فى شـعر هذين الشاعرين إلا أنه لاتعالج الرثاء فى شـعركلا هذين الشاعرين. هنا نذكر بعض هذه الدراسات التى اقتربت بموضوع المقالة:

عبدالعزيز الرشيد عبدالعزيز سالمألف كتاب "شعر الرثاء العربى واستنهاض العزائم" سنة ١٩٨٧م فى الكويت وأشار فيه إلى الرثاء فى الشعر العربى بأدواره المختلفة. كما نرى نصر الله إمامى فى كتاب «مرثيه سرايى درادبيات فارسى (تا پايان قرن هشتم)» (الرثاء فى الأدب الفارسى حتى القرن الثامن) سنة ١٣٦٩ش فى أهواز وأشار فيه إلى الرثاء فى شعر الخاقانى أيضا. رسالة ماجستير تحت عنوان «رثاء الأولاد فى الشعر العربى الحديث» كتبتها "رنا سالم المعطانى" سنة ١٤٣٤-١٤٣٥ق فى جامعة أم القرى السعودية حيث نراها تدرس الرثاء فى عصور الجاهلى وصدر الإسلام وبنى أمية والعباسى والحديث وتأتى بالشواهد الشعرية من كل عصر إلا أنه لا تشير إلى العصر المملوكى الذى عاش فيه ابن نباتة. أما الفرق بين هذه الدراسة والدراسات السابقة فهو أن هذه الدراسة قامت بمقارنة قصائد الشاعرين فى الرثاء إلا أنه لا يرى هذا النوع من المقارنة بين هذين الشاعرين فى الدراسات السابقة فلهذا يعتبر البحث الحالى بحث جديد وحديث فى هذا الصعيد.

منهج البحث

منهج البحث فى هذه الدراسة هو الوصفى- التحليلى الذى يتبنى على مدرسة المقارنة الأمريكية حيث أنه تذكر أبيات من الشاعرين وتوصف على أساس المشابهة بما أنه هذه المدرسة الأمريكية لاتهتم بالعلاقات الأدبية المختلفة على أساس التأثير والتأثر على نقيض المدرسة الفرنسية فى هذا المجال بل مبدأ المشابهة هو الأساس فى هذه المدرسة و«هذا المبدأ التشابهى جعل الأدب أن يدرس مع المعارف الأخرى منها الفنون الجميلة كالموسيقى والرقص والبناء وأن يدرس علاقة الأدب بالعلوم التجربية من خلال الدراسات الأدبية والنقدية؛ فيربط أدب المقارن فى المدرسة الأمريكية بالنقد الحديث ربطا رصينا.» (علوش، ١٩٨٧م: ٩٣)

أنظر "هنرى ماركّ" الذى يهتم بالأدب المقارن الأمريكى كيف يبين هذا النوع من الأدب ويقول: «الأدب المقارن هو دراسة الأدب فى خارج حدود البلاد ومطالعة علاقة الأدب بالمعارف البشرية مثل الفنون (الرسم، والموسيقى، والبناء)، والفلسفة،

والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (السياسة، والاقتصاد وعلم الاجتماع و ...)، العلوم والأديان وبالتالى يعنى الأدب المقارن بمقارنة أدب البلاد مع الأدب فى بلد واحد أو فى عدة بلاد وقياس الأدب بالمعارف البشرية الأخرى.» (خطيب، ١٩٩٩م: ٥٠)

أما هذه الدراسة فقد جاءت فى بضعة فروع بدأت بذكر المعنى اللغوى والاصطلاحى للرثاء ثم تناول البحث نبذة عن حياة الشاعرين، إذ من المهم قبل الدخول فى ذكر مضامين الرثاء التى أنشدها هذان الشاعران، استعراض حياتهما، حيث اتصل الكثير من أفكارهما بحياتهما فدراسة شعرهما لا يمكن أن تستقيم ما لم نلم بظروف أحاطت بحياتهما وهى فقدان أولادهما ثم تناول البحث بذكر وجوه الافتراق ووجوه التشابه فى رثاء الشاعرين مع إيراد نماذج من شعرهما فى هذا المجال.

الرثاء لغة ومصطلحاً

يقال رثى فلانٌ فلاناً يرثيه مرثيةً إذا بكاه بعد موته، قال: فإن مدحه بعد موته قيل رثّا يرثيه ترثية ورثيتُ الميتَ ورثاهُ ومرثاة ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته ورثوتُ الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلک إذا نظمتُ فيه شعرا ورثت المرأة جعلها ترثية ورثيته ترثاة رثاية فيهما. (الزبيدى، ١٤٢٢ق: مادة رثا)

الرثاء اصطلاحا هو البكاء على الميت وتعداد حسناته معا وفى آن واحد سواء بالشعر أو بالنثر. (حسن غنيم، لاتا: ٣٤)

ابن نباتة المصرى والخاقانى

ابن نباتة المصرى (٦٨٦-٧٦٨ق/١٢٨٧-١٣٦٦م) هو أبوبكر جمال الدين القرشى. ولد فى ميافارقين من (حى القمامة) فى القدس .نشأ ابن نباته فى بيت يرفل بالثروة والجاه بين أسرة ظاهرة النفوذ وفى ظل أب عطوف ذاع صيته فى العلم والفضل والأدب وكثيراً ما فخر بأبيه وآله وبمجد بيته. قال ابن نباتة الشعر فى صباه وقد اجتاز الثالثة عشرة من عمره مما يدل على موهبة صادقة وفطرة خالصة وإطلاع واسع وقد نال فى القاهرة قسطا وافراً من الثقاته الدينية والأدبية وأخذ العلم والمعرفة عن أشهر أعلام

العصر. وقيل فتح مكتبا للتعليم ونجح فيه .«وهكذا نشأ بمصر، ورحل إلى دمشق، ثم اتصل بالملک المؤيد أمير حماة، وكان كاتبا له، ثم دعاه السلطان حسن فی مصر ليكتب له فلبی الدعوة لكن السلطان مات فی السنة التالية وقد توفی ابن نباتة فی مصر سنة ١٣٦٦م.» (الفاخوری، ١٤٢٧ق: ١٠٥٠)

قصة هذا الشاعر قصة محزنة جدا كان يرزق بالأولاد وما إن يتم ابنه السادسة من العمر يتوفاه الله ورزق بولده الثامن وسماه عبدالرحيم وتجاوز السادسة من عمره فرأي فيه امتدادا لحياته وما ان بلغ عبدالرحيم الثامنة من عمره توفاه الله ولحقته زوجته وجاريته فالشاعر لم يتحمل ما أصابه فأقام بين القبور ورثاهم بقصائد.

ولد حسان العجم أفضل الدين بديل بن علی خاقانی الحقائقی الشروانی سنة ٥٢٠ق، فی تبريز (الكزازی، ١٣٦٨ش: ٩) وتوفی سنة ٥٨٢ش فی هذه المدينة. «كان أبوه نجاراً فقيراً يسمی علياً وكانت أمه من المسيحين النساطرة الذين أعلنوا إسلامهم.» (صفا، ١٣٧٢ش، ج٢: ٧٧٧) «وعلی الرغم من حياة والديه الفقيرة فقد حظی الخاقانی بدعم وحماية وتشجيع من قبل عمه كافی الدين عمر بن عثمان الذی كان حكيماً وطبيباً وفيلسوفاً. وبما أن عمه أدرک مواهبه منذ طفولته فسعی فی تربيته وحين سمع منه قصائده فی مدح النبی الأعظم (ص) وغيرها من القصائد قارنه مع حسان بن ثابت الأنصاری ولقّبه بـ"حسان العجم". وبما أن الخاقانی قد أعجب بهذا اللقب فقد ذكره فی أشعاره مراراً.» (استعلامی، ١٣٨٧ش: ١٦) مدح الخاقانی الشروانی أمراء وملوک السلاجقة والخوارزمشاة والشراونة. أنشد "تحفة العراقين" فی مكة، و"ايوان مدائن" فی سفره ببغداد. اشتهر الخاقانی فی المدح إلا أنه كان رجلا طموحا وحرا وأبیّ الطبع واجتنب الاكتساب بالمدح. (صفا، ١٣٦٢ش: ٧٨٣/٢)

له قصائد فی الرثاء والندبة ومنها قصيدة نظمها فی رثاء الملک منوشهر الذی كان معاصراً له ورثي أحد علماء مدينة نيسابور والإمام محمد بن يحي وله ايضا قصيدة معروفة "بترنم المصائب" يرثی فيها ابنه الذی فارق الحياة فی عنفوان حياته فيعبر الشاعر فيها عن أحزانه وتظهر القصيدة مدی أثر موت ولده فيه وطريقة تفاعله مع هذه الفاجعة المؤلمة.

وجوه الافتراق فى رثاء الشاعرين

إن الله تعالـى جعل الأبناء زينة الحياة الدنيا فحب الأبناء عند آبائهم لا يعلوه حب آخـر لأنه تعالى قد أودع فى قلوب الآباء والأمهات قدرا كبيرا من الرحمة فعندما توفى لأب ولده فإننا نرى فيه أبا حزينا يتفجع ويكابد لفراق ابنه ولو نستمع إلى الكلمة التى يلقيها لوجدنا أن الحزن والألم يسيل من كلامه فهذا حال كل أب فقد ابنه وتتجلى صدق عاطفة الأب تجاه ولده الذى مات ومع ذلك نرى عند كل من فقد ابنه ردة فعل خاصة له تختلف عمن سواه من الآباء فى كثير من الأحيان. وإننا نريد أن نشير إلى بعض وجوه الافتراق والتشابه فى مراثى الشاعرين فنبدأ بذكر وجوه الافتراق ومنها:

اتجاه رثاء الشاعرين

نـرى الخاقانى أنـه فى رثائه لأبنائه يدعو الجميع إلى بـكاء الدم والعزاء ويدعوهم لإسـهامهم فى عزائه ويعبر عن هذا فى أبيات متعددة فلهذا سـيطر على رثاء الخاقانى اتجاه جمعى كما يقول:

آرى آتش اجل و باغ ببر فرزند اسـت رفـت فرزند شمـا زيور و فر بگشـاييد

نعم! النار [فى النوم] هو الموت والبسـتان المثمـر هو الأولاد. مات ولدى فاخلعوا حليكم وحلّوا ذوائبكم فى مأتمى.

نازنينـان منـا! مـرد چـراغ دل مـن همچو شمع از مژه خوناب جگر بگشاييد

(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ١٦٠-١٥٩)

أحبائى، توفى ولدى الذى كان نور قلبى. فصبوا من أعينكم الدموع الدامية كالشمع الذى يصبّ الدمع حينما يحترق.

فى حين نرى ابن نباتة المصرى لا يميل إلى إسـهام الآخرين فى ألمه وحزنه ويترجح أن يخفـى أحزانه من موت ولده فى نفسـه فلهذا يأبى مـن إظهار حزنه على فقد أولاده ويفضل التأمل والاسـتبطان فى أحزانه الناشئة من موت أولاده. فسيطر على رثاء ابن نباتة اتجاه فردى خلافا لرثاء الخاقانى. انظره كيف يظهر هذا الاتجاه فى رثائه:

اللهُ جـارك إنَّ دمعـى جارى يا موحِـشَ الأوطانِ و الأوطارِ

لما سَكَنت مِن التُرابِ حَديقة فاضَت عَلَيک العينُ بالأنهارِ
أبكي بمحمرِّ الدّموعِ و إنَّما تَبكي العُيُونُ نَظيرها بنضارِ
لَهَفي لِجوهرةٍ خفت فكأنني حجبُتهَا مِن أدمُعي بجارِ

(المصرى، لاتا: ٢١٩)

يوضح الشاعر الحُزن الذى لحِق به من فقدان ابنه حيث نراه يقول إنّ ابنه جار الله، وهو دمعه جاره وحين دفن فى التراب كانت حديقة فاضت عليها العين والأنهار، ويظهر الشاعر حزنه الكبير علي من فقد من أهله وأنّه أصبح فى القبور ينادى أهله بانفراده ولا يدعو الآخرين للإسهام فى حزنه كما فعله الخاقانى.

وكذلک يعبر الشاعر عن ألمه على فراق ولده فى قصيدة أخرى حيث يقول:

أبكيک للحسنين الخلق والخُلق كما بكي الروض صوب العارض الغدق
تبكيک رقة لفظى فى مهارقها يا غصن فاسمع بكاء الورق فى الورق
وما أوفيک يا عبد الرحيم وإن بكت لک العين بعد الماء بالعلق
ما زال مبيضّ دمعى داعياً لدمى حتى بكيت ظلال الحسن بالشفق

(المصرى، لاتا: ١٥٦)

وكما يبدو أنه يبكيه وحده ويسمع نوح الحمام على الأوراق منفردا ولا يدعو الكون والحمام وغير ذلک من الجماد والنبات والحيوان لمشاركتهم فى حزنه لولده الفقيد.

الأسلوب الخطابى

نرى أن الأسلوب الخطابى من أهم خصائص مراثى الخاقانى وهو يخاطب مخاطبيه فى قصائده الرثائية دوما وأسلوبه الخطابى هو خطاب الجمع:

صبحگاهى سر خوناب جگر بگشاييد ژاله صبحدم از نرگس تر بگشاييد

(الخاقانى، ١٣٦٨: ١٥٧)

يدعو الشاعر الأقرباء والأصدقاء إلى البكاء الصادق على فقد ابنه فى الصباح الباكر ويقول: فى الصباح الباكر ابكوا بكاءا دمويا وافسحوا المجال لعيونكم أن تجرى دموعكم منها.

استعمل الشاعر فى هذا البيت "خوناب" بمعنى البكاء الدموى فهو إضافة مقلوبة فى اللغة الفارسية وكذلک استعار "نرگس تر" للعيون الباكية.

سيل خون از جگر آريد سوى بام دماغ نــاودان مژه را، راه گذر بگشــاييد

(نفس المصدر: ١٥٨)

يدعو الشــاعر متلقيه إلى البكاء الكثير الدامى فى ابنه ويقول: جيؤوا بدم كثير من أكبادكم إلى ســقف الدماغ وافتحوا الطريق لآماق عيونكم لتدفق. فى هذا البيت إشارة إلــى عقائد القدامى فى إيجــاد الدمع وإنهم كانوا يعتقدون بــأن دم الكبد يحترق وتبخر ويصل إلى الدماغ ويتحول هناک إلى الدمع ويجرى من آماق العيون.

إلا أن ابن نباتة المصرى يتغير الخطاب وفقا للموضوع وقد يخاطب الفقيد ويستطرد أبياته الرثائية أو بعبارة أخرى سيطر أسلوب خطاب الفرد على مراثيه حيث يقول:

أبُنيَّ قَــد كنزتُکَ فى الثرى فَانفع أباکَبســاعةِ الإقتار

أبنيَّ قَد وَقفت على حوادثٌ فَوقفــنَ مِن طَلَلٍ على آثارِ

(المصرى، لاتا: ٢١٩)

ونــراه قد يخاطب قلب الإنســان البصير ويلجأ إلى القصائــد الحكمية التى لا نكاد نراها فى شعر الخاقانى الرثائى:

أينَ المُلوکُ الرَّافلونَ إلى العُلَى عَثَرُوا إلى الأجداثِ أىُّ عثارِ

كانوا جِبالا لا تُرام فأصبحُوا بِيدِ الــردى حفنات ترب هارِ

(المصرى، لاتا: ٧٧٦)

إن الشــاعر فى هذيــن البيتين من قصيدته الرثائية التى يرثــى فيها ولده الذى مات يســأل أولا: أين الملوک الذين يجرون ذيلهم ويتبخترون فى سيرهم إلى المجد والعظمة؟ ثم يجيب على هذا الســؤال قائلا: كلهم سقطوا فى قبورهم وماتوا وإنهم كانوا فى العظمة كالجبال الشــامخة ولا يستطيع أحد أن يطلبها ويشتهيها فهكذا جعلهم الموت ملء الكفّ من التراب المتســاقط. ونجد فى هذه الإجابة نوعا من الحكمة التى نحن نراها فى القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّکَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧) وأيضا يقول: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا

أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٣٩)

عمق الرثاء

على حد قول الشعراء الذين عاشوا بعد الخاقانى والذين فهموا قدرة شعر الرثاء فى التعبير عن المفاهيم والصور والتخيلات فى التراكيب والقوالب إن رثاء الخاقانى إضافة علـى حظه من الفنون التعبيريـة والتخيل والتعقل والعواطف فإنـه يتجلى فيه مظاهر واسـعة وكثيرة من العقائد والتقاليد المذهبية والعادات والطقوس الاجتماعية والتقاليد السـوقية التى تتجه إلى اتجـاه حزين وملهف. (زنكنـة، ١٣٨٩ش: ١١٢) لا نكاد نرى مراثـى كمراثى الخاقانى قبله حيث لا نجازف أن نقول إن الخاقانى يعتبر الرائد فى هذا المجال فى الأدب الفارسـى. انظر إلى هذه الأبيات كيف تأخذ بيدك وتقوم بإدخالك فى عالم الحزن:

تنم از آتش تب سوخته چون عود ونى است
چـون نـى وعـود سرانگشـت بخائيد همه
خوى به پيشانى وكف بردهنم بس خطر است
بـه گلاب آن خوى وكف چنـد زدائيد همه
چون صراحى بـه فواق آمده خون در دهنم
زآن شمـا زهـر كـش جـام بلائيـد همـه
(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ٤٠٧و٤٠٨)

الشاعر ينشد هذه الأبيات بلسان ولده "أمير رشيد" نهاية حياته ويتذكر ذكرياته فى السنوات الماضية مع ولده و هذا يجرح نفسه وروحه، ويقول:

إن جسمى بسـبب الحمى الشديدة صار كالعود والقصب نحيفا فبهذا السبب اندموا وتحسروا.

إن وجود العرق على جبهتى والرغوة فى فمى خطر مفجع فإلى متى أنتم مشـغولون بإزالتهما عن جبهتى بماء الورد.

وكمـا يعلو كأس الخمر من فقاعات، لُطِّخَ فمى بالدماء ما جعلكم تتجرعون السـم

الزعاف من حدثان الدهر.

بينمـــا نحن لا نرى هذا النوع من العمق فى الرثاء عند الشـــاعر المملوكى وإنه حذا حذو الشعراء المتقدمين فى مجال الرثاء وقلدهم فى أكثر من شعره فى الأغراض المختلفة. لايتجلـــى فى رثاء ابن نباتـــة كثير من هذه المظاهر التى ذكـــرت فى رثاء الخاقانى. كما لايتجلى ظاهرة اجتماعية كالعقائد المذهبية وغيرها من العادات والســـنن الاجتماعية فى رثائه وليس فى هذا النوع من الشـــعر مثيل بأشعار الخاقانى. فلهذا لا يرود ابن نباتة فى هذا الشعر أبدا خلافا لخاقانى. فرثاء الخاقانى لأولاده مليئة بالمظاهر المختلفة للحياة فى حين أن رثاء ابن نباتة ليس كذلک إلا ما قل وندر فإنه قد حذا حذو المتقدمين وذكر معانيهم فقط دون أى إبداع. ها هو ابن نباتة المصرى يقول:

فيا وَلَدى يـــا تولدَ حزنِ قلبٍ فعمَّ أصولُ بيتِـــکَ و الفروعا
ومسَّ عيونَ من فارقت شـــرٌ فأصبـــحَ كلُّ إنســـانٍ جزوعا
أمـــا والجاريـــاتُ بصحنِ خدٍ بَكَت و المورياتُ ورت ضلوعا
لَقَـــد أطفـــا شميعـــة نـــور بيتٍ ردىً كـــم مثلهـــا أطفا شموعا

(المصرى، لاتا: ٥٧)

القدرة على إبداع الصور الشعرية

هنـــاک ميـــزة فى رثاء الخاقـــانى لأولاده وهى «أنه كان للشـــاعر حضور واضح فى الحـــوادث والفجائـــع وفى بعض الأحيان يشـــاهد الحوادث بعينيه فلهـــذا كثر التصوير الإبداعى والصور البديعية فى شـــعرالخاقانى الرثائى كثرة.» (الإمامى، ١٣٦٩ش: ٥٠) وبنـــاءا على هذا يعتبر كيفية إبداع المضامين والفحاوى بكلمات العبرة والبكاء إحدى الصـــور المتخيلة والمؤثرة فى مراث الخاقانى لأبنائه إن يعبر عن هذا غلوا وحشـــوا فى بعض الأحيان. انظره كيف يذكر هذا فى رثائه لولده:

دانه دانه گهر اشک ببارید چنانک گره رشته تسبیح ز سر بگشایید

(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ١٥٨)

تدفقوا الدموع تدفقا غزيرا بفقد ولدى كما هو الحال عندما تفتح عقدة المســـبحة،

فتسقط بذورها على رسلها.

از سیل اشک بر سر توفان واقعه خوناب قبه قبه به شکل حباب شد

(نفس المصدر: ١٥٥)

إن كثرة البكاء بسبب هذه الكارثة المؤلمة جعلت قطرات الدموع الدامية كالحباب عندما تسقط على السيل المتشكل من البكاء .

لايتجلى هذه الصور البديعية فى رثاء ابن نباتة لأولاده فخلا شعره من الإبداع فى الاتيان بالصور البديعية الحديثة كغيره من شعراء العصر المملوكى. فرثاء ابن نباتة خال من التصاوير الإبداعية والحيوية. فليس باستطاعة الشاعر التلاعب بالكلمات كالعبرة والبكاء كالخاقانى ولم يخرج الشاعر عن المعانى التقليدية لرثاء الأولاد فقد تأثر بمن سبقه من الشعراء:

أبكيكَ للحسنين الخَلقَ والخُلُقَ كمَا بَكَى الروضُ صوبَ العارضِ الغدقِ

تبكيكَ رقَّةِ لفظى فى مَهَارَتِها يا غصنُ فاسمع بكاءَ الوُرقِ فى الوَرَقِ

ومَا أوفيكَ يا عبدالرّحيم وإن بكت لكَ العينُ بعدَ الماءِ بالعُلُقِ

(المصرى، لاتا: ١٥٦)

تتجلى صدق عاطفة الشاعر تجاه ولده الذى يبكيه بحسرة لجمال خلقه وأخلاقه ويشبه بكاءه بالروض عندما ينزل المطر الغزير عليه، وهو يبكيه بألفاظه وشعره فيسمع نوح الحمام وصوتها الحزين على الأوراق كأنها تشاركه أحزانه. كما يبدو يخلو رثاء ابن نباتة من حيوية رثاء الخاقانى وعبر عن معان بسيطة يخطر ببال أى شاعر بسيط ولا يحتاج إلى التأمل لفهمه وهذا يختلف عن الشعر الخاقانى اختلافا جذريا.

وجوه التشابه

تتشابهت مراثى الشاعرين فى بعض المعانى والمفاهيم والدلالات الرثائية تشابها ملموسا حيث أنه يظن المتفحص فى أشعار الشاعرين الرثائية أن الشاعر العربى كان قد تأثر من الشاعر الفارسى ولئن لا يستبعد هذا إلا أن فقد الصور البديعية والمتنوعة فى شعر رثائى لابن نباتة لايؤيد هذا الدعوى.

البكاء والتَنَهُّد

يعد التَنهُّد والبكاء من السلوكيات الأكثر شيوعاً للأشخاص الذين فقدوا أحباءهم. هذا السلوك ما كان مستورا من الشاعرين. مراثى الخاقانى مليئة بالدموع والآهات وانعكست صور متعددة من بكائه فى أشعاره إلا أن أجمل هذه الصور عن البكاء تجلت فى مرثية أشاد لابنه الرشيد، فالشاعر يبدع فيه ويجر على لسانه أقوال لا تخطر ببال أحد:

گريه گه گه نكند ياری از آن گريم خون
كه چو خواهم مددی ساخته تر می نرسد
آه از اين گريه كه گه بندد وگه بگشايد
گه به كعب آيد وگاهی به كمر می نرسد
اشک چون طفل كه ناخوانده به يک تک بدود
باز چون خوانمش از ديده به بر می نرسد
(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ٥٤٢ و ٥٤٣)

إن البكاء فى بعض الأحيان لا يساعدنى وبما أننى أرجو منه المساعدة ولا يعيننى فأنا أبكى دما.

واحسرتاه على هذا البكاء الذى يغلق حينا ويفتح حينا آخر ويصل أثره حينا بسبب كثرته إلى الكعب وحينا آخر لا يصل إلى الخاصرة.

الدمع كالطفل ينساب دون أى دليل وإذا أريد منه أن ينساب لا يجرى من العين .

وفى موضع آخر كما سبق يقول عنه:

صبح گاهی سرخوناب جگربگشاييد ژاله صبح دم از نرگس تر بگشاييد
دانه دانه گهر اشک بباريد چنانک گره رشته تسبيح ز سر بگشاييد

اسمحوا للدماء أن تتدفق من الأحشاء فجرا واجعلوا أعينكم عرضة للدموع صباحا. تدفقوا الدموع تدفقا غزيرا بفقد ولدى كما هو الحال عندما تفتح عقدة المسبحة، فتسقط بذورها على رسلها.

(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ١٥٨)

كما يبكى ابن نباتة من فقد ولده ويذكر بابيات جميلة تعبر عن مدى حزنه فى موت ولده ويقول:

أبكيـكَ لِلحَسَـنين الخَلقَـو الخُلُقَ كمابَكَى الروضُ صوبَ العارضِ الغَدَقِ
تبكيـكَ رقَّـةَ لفظـى فى مهارقِهـا يا غصنُ فاسمع بِكاءَ الوُرقِ فى الوَرَقِ
مـازال مبيـضّ دمعى داعيـاً لدمى حتّى بكيت ظلال الحسـن بالشـفق
وخدّدت فوقَ خدّى للبكاء طرقٌحتّى رويـتُ حديـثَ الحزنِ عـنِ طرقِ

نراه فى موضع آخر يرثى ولدا له مات صغيرا وهكذا يقول:

أبكيكَ ما بَكَـت الحمامُ هديلها وأحـنُّ مـا حنّت إلـى الأوكارِ
أبكـى بمحمـرّ الدّمـوعِ وإنَّمـا تَبكـى العُيُـونُ نظيرهـا بنضارِ

(المصرى، لاتا: ٢١٨)

يتجلـى صدق عاطفة ابن نباتة تجاه ولده الذى يبكيه بحسـرة لجمال خلقه وأخلاقه ويشبه بكاءه بالروض عندما ينزل المطر الغزير عليه، وهو يبكيه بألفاظه وشعره فيسمع نـوح الحمام وصوتها الحزين على الأوراق كأنها تشـاركه أحزانه وهو يؤكد أن حزنه مسـتمر لا ينقطع لعظم المصيبة الواقعة عليه فهو لايفتأ يبكى ويتذكر فقيده فحزنه ثابت ومتجدد فتتدفق عواطفه تجاه ولده بحرارة مصورة آلامه النفسـية فهو يسـتعين بما يملك من إمكانات نفسية وفنية ليعبر عن تجربته المريرة بالفقدان.

موت الولد فاجعة

ورد عـن فاجعة فى لسـان العرب هكذا: الفجيعـة الرَّزِيّةُ المُوجِعةُ بمـا يَكْرُمُ فَجَعَه يَفْجَعُه فَجْعاً فهو مَفْجُوعٌ وفَجِيـعٌ وفَجَّعَه وهى الفَجِيعةُ وكذلك التفْجِيعُ وفَجَعَتْه المُصِيبةُ أَى أَوْجَعَتْه والفَواجِعُ المَصائِبُ المُؤْلِمَةُ التى تَفْجَعُ الإِنسـان بما يَعِزُّ عليه من مال أَو حَمِيم الواحـدة فاجِعةٌ وفى التهذيب ودَهْرٌ فاجعٌ له حَمِيـمٌ فالفاجعة هى المصيبة المؤلمة توجع الانسـان بفقد ما يعـزُّ عليه من مالٍ أو حميم. (ابن منظور، لاتـا: ٢٤٥) يعتبر الخاقانى مـوت ولده فاجعة فعلى الجميع أن يغيروا كل شـىء من أجـل فوت ابنه و يعطلوا كل شىء قائلا:

خبر مرگ جگر گوشــه من گوش کنید　　شد جگر چشمه خون، چشم عبر بگشایید
باد غم جســت در لهو وطــرب بربندید　　موج خون خاست سرِ بهو وطرز بگشایید
(خاقانی، ١٣٦٨: ١٦٠)

اسمعوا خــبر موت فلذتی واسمعوا هذا الخبر بعین الاعتبــار حیث کبدی صار بهذا الخبر منهلا للدماء.

هبّــت ریاح الحزن فأغلقوا أبواب اللهو وعطلــوا الطرب وارتفعت أمواج من الدم فافتحوا أبواب الطرق.

وهکذا یعتبر الشــاعر ابن نباتة المصری موت ولده الفاجعة التی فوجئ بها الشاعر فبناءا علی هذا یفرق بین ما أصابه والآخرین حینما یرثی ولدا له مات صغیرا ویقول:

کــم نائحٍ کالصَّــدَی مثلِــی علی ولدٍ　　یقــولُ واحرَقــی إن قلــتُ واحرِقی
ولا کمثلــی فِی حُــزنٍ فُجعــتُ بــه　　لکــن أعلــقُ صــبری فیــه بالعُلــقِ
(المصری، لاتا: ٣٤٨)

تشبیه الولد بالمظاهر المختلفة

الرثــاء هو تعداد خصال المیت بما کان یتصف به من صفات: کالکرم، والشــجاعة، والعفة، والعدل، والعقل. قد یتوســل الشــاعر الراثی إلی تشبیه المیت بالمظاهر الطبیعیة والأشــیاء المختلفة للتعبیر عن هذه الخصال حیث أن هذه المظاهر تدل علی خصائص، کما نری فی أشــعار الشــاعرین فنری أن الشاعر الخاقانی یشــبه ولده بمظاهر الطبیعة کالقمر والربیع والجوهرة والنجم ویقول فیه:

آنک آن مرکب چوبین که سوارش قمر است　　ره دروازه بــرآن تنــگ مقر بگشــایید
شد شکســته گهرم دست برآرید زجیب　　ســرزنان ندبه کنان جیب گهر بگشایید
(خاقانی، ١٣٦٨: ١٦٢)

یعتبر الشاعر التابوت المرکب الخشبی الذی وضع ولده المیت فیه ویقول:

افتحوا البوابة لحمل التابوت الذی یضیق علی القمر الذی وضع فیه.

انکســر جوهری وولدی وفقدتُ شأنی ومکانتی بواسطة موته فمزقوا جیوبکم وأنتم

ضاربون رؤوسكم ونادبون.

وهذه الميزة مفهومة فى مراثى ابن نباتة المصرى والشاعر العربى يشبه ولده الذى فارق الحياة بالهلال وفرع النبات والنهر وغيرها من مظاهر الحياة تماما كمل فعل الخاقانى الشروانى حيث يقول:

كنتَ الهلالَ لأفقٍ فعارضَ الأفقُ سعدكَ
وكنتَ فرعِ نباتٍ فأذبلَ الموتُ وَردكَ
وكنتَ نهرٍ بحارٍ لو عشتَ أحييتَ مجدَكَ
وآهاً لأقلامِ علمٍ عدمنَ يا نهرُ مدّك

(المصرى، لاتا: ٧٧٧)

الدعوة إلى التمرد من شدة الحزن

إن المؤمنين بالله يعتقدون بأن كل شىء أمانة الله فى يد الإنسان وهذا يرجع إلى إيمانهم بالله ومثابرتهم ومقاومتهم فى وجه البلايا ولئن بكوا على فقدان أعزائهم فإنهم لاييأسون وذلک لايدفعهم إلى العصيان والكفر وإنهم يعرفون بأنهم لايسطيعون على رد المصائب و إبعاده فيعتبرون كل مصائب فتنة الله ويقبلونها دون أن يقاوموا أمامها لأنهم مؤمنون بكلام الله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ إيمانا تاما، خلافا لهؤلاء الذين ليس لديهم اعتقاد سديد فلهذا يبكون بكاءا كثيرا لا يتوقف ويعتبرون موت الأشخاص ناشئا من ابتلائم بواسطة الله نعالى.

قد يعجز الراثى تجاه الحزن الناشئ من فقد أولاده فيدعو الإنسان وكل الأشياء فى العالم إلى العصيان والتمرد وهذا ينبع من شدة المصيبة الذى اصيبت به. قد ينتهى هذا الحزن إلى التمرد والغضب؛ الغضب الذى يقع بعد كارثة ولكن لايرى وسيلة للتعبير عن حزنه الكثير فيدعو إلى التمرد والعصيان «يعتبر الغضب واحد من المشاعرالأكثرإرتباكا الذى يختبره صاحب الحزن وينبع منه العديد من المشاكل للراثى.» (المعتمدى، ١٣٩٠ش: ٢٥٠ و٢٥١) الخاقانى يقول:

به وفاى دل من ناله برآريد چنانک چنبر اين فلک شعوذه گر بگشاييد

دل کبود است چو نیل فلک ار بتوانید بـام خمخانه نیلـی به تبر بگشـایید
(خاقانی، ١٣٦٨: ١٥٨)

توجعوا من صميم قلوبكم ولاء لقلبى وافتحوا بأنينكم دائرة هذا الدهر المشعوذ.

صار قلبى كدرا كلون السماء فدمروا إن استطعتم سقف هذا الدهر الرمادى بالفأس لنتخلص من ظلمه وشؤمه.

حينما يفارق ابن الخاقانى الحياة ويقصد الأجل المحتوم ولده، يتطرق الشاعر طريق العصيـان فى الابتداء ويشـكو ويعترض على المصيبة التى انتهـت إليه ويقول أقوالا لم يسـبق أن يصدر منه فيحترق الشـاعر فى الأحـزان من فقد ابنه ويتوقـع من أنصاره وأحبائه أن يساهموه فى الحزن. نراه فى قصيدة "ترنم المصائب" يصعد آهاته ويعتبر موت رشيد الدين ظلم الزمان ويدعو إلى "سد الزنار"١ حيث يقول:

پـس بمویی که ببریـد ز بیداد فلک همـه زنـار ببندید و کمر بگشـایید
(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ١٦١)

بما أن الدهر ظلمنى وقطع لى شعرا ـ أى سلب منى ولدى ـ فاصنعوا حزاما وشدوا به بطنكم.

يرجع الخاقانى موت ولده إلى "سـوء تصرف الدهر" وظلمه فيبدأ بالشكوى التى لا تنتهى عنده من الدهر فلهذا يخاف من أنه إذا اسـتمر فى شـكواه يمكن أن يملأ شـكواه العالمين ويقول:

دارم از چرخ تهی دو گله چندان که مپرس دو جهان پر شود ار یک گله سرباز کنم
(نفس المصدر: ٥٤٢)

هـا هو ابن نباتة الذى يؤلم من فقد أبنائه بالشـدة فانظره كيف يدفعه شـدة الحزن بإنشاد الأبيات المؤلمة التالية:

فيـا أسـاى تمـرّد و يـا سـلوى تَمـردک
و يا حيا الغيـثِ أجزِل لذابـلِ العطـفِ رَفدک
واجعَـل بـكاکَ عليـه نداکَ و النـوحَ رعدُک

١. سد الزنارأى قبول سنن المسيحية.

(المصرى، لاتا: ١٥٧)

الشعور بالذنب

من ردود الفعل العاطفية للشخص المحزون هو الشعور بالذنب بعد موت أحبائه. قد يشعر الراثى بالذنب لحياته بعد العزيز المتوفى ويعتبر نفسه يستحق اللوم. (ثابت، ١٣٩٢ش: ١٣٢) انظر الخاقانى كيف يشير إلى هذا الشعور ويشعر بالذنب والحياء بعد موت ولده الناشئ حينما يقول:

این منم زنده که تابوت تو گیرم در زر　　کآرزو بد که دوات تو به زر در گیرم؟

(خاقانى، ١٣٦٨ش: ٥٤٤)

ها أنا ذا أعيش وأتنفس لكى أزيّن تابوتک وكنت أرجو أن أزيّن محبرتک .

يمكن العثور على هذه المشاعر فى الشعر الرثائى لابن نباتة المصرى. فى رأيه ليس للعيش بعد موت ولده خير وليس باستطاعته قبل هذه الحالة بعد أن فارقت ابنه الحياة:

لالينک اليومَ أرجُو　　و لستُ أرهبُ شدّک
قضيتُ کفَّ مرادى　　فاقدح بقلبى زندَک
لم أنسَ لثمکَ لما　　أحسستُ بالموتِ بعدَک
أفٍ لقلبى إن لم　　يوفِّ بالحُزنِ وُدَّک
أسکنتُ قلبىَ لحدک　　لا خيرَ فى العيش بعدَک
ما الدارُ بعدکَ عندى　　أرى و إلا فعندَک

(المصرى، لاتا: ١٥٦)

انظره فى شعر آخرله يرثى ولدا له مات صغيرا:

خفّ النجا بک يا بنىّ إلى السرى　　فسبقتنى وثقلتُ بالأوزار
ليت الرّدى إذ لَم يَدعکَ أهابَ بى　　حتى ندومَ معاً على المضمارِ

(نفس المصدر: ٢١٨)

کيفَ الحياةُ وقد دفنتُ جوانحِى　　ما بينَ أنجادٍ إلى أغوارِ

(نفس المصدر: ٢١٩)

إظهار العجز أمام حتمية الموت

الخاقانى يعتقد بحتمية الموت وعبثية الحياة ويدرى أنه لا مفر من الموت، فى رأيه كلنا عاجزون أمام القدر ويظهر مظاهر قبول هذه الحتمية فى شعره فليس فى رأيه باستطاعة شخص السيطرة على القدر وأحداثه الحتمية واللأبدية كما يقول:

ای همه عاجز اشکال قدر ممکن نیست　　که شما مشکل این غم به هنر بگشایید
عقده بابلیان را بتوانید گشاد　　نتوانید که اشکال قدر بگشایید
جای عجز است و مرا نیست گمانی که شما　　گره عجز به انگشت ظفر بگشایید

(الخاقانى، ١٣٦٨ش: ١٦٢)

من ناحية أخرى نرى أن الشاعر العربى أيضا يدرك حتمية الموت بعد أن قبل موت ابنه ويحاول أن يخفف عن نفسه وهو يدرك شيئاً عقلياً بعيداً عن العاطفة فيورد لنا أسماء معروفة فى التاريخ (ابن ذى يزن) و(تبع) و(ذو سنداد) و(الزباء) ليدلل على أن الموت أمرٌ لابد منه، وليهون عن نفسه ألم فقدان ولده فكم من ملك هلك وكم من والد بكى ابنه واحترق قلبه لفقده وبهذا يتوثل الشاعر إلى «حتمية الموت وعبثية الحياة وإنه مدركه لا محاله حتى لو كان فى بروج مشيدة.» (الكبيسى، ١٩٨٣م: ٣٠) فنجد الشاعر يقول فى هذا المعنى:

بنيَّ إن تُسقَ كاساتِ الحمامِ فكَم　　مليكٍ حَسن كما شاءَ الزمانُ سقى
بنيَّ إن الرَّدَى كأسٌ علَى أممٍ　　ما بينَ مُصطَبِح منها ومغتبقِ
ما ردَّ سيفُ الرَّدى سيفُ ابنَ ذى يزنٍ　　ولانجا تبعٌ فى الزعفِ و الحلقِ
ولا احتمى عنهُ ذوسنادِ فى شرفٍ　　ولا اختفَت دونَه الزّباء فى نفقِ

(المصرى، لاتا: ٣٤٨)

نرى فى الأبيات بأن ابن نباتة بإنشادها إياها يذكر المعانى الإنسانية التى تصل إلى الحكمة فى رثاء ولده وعد حادثة الموت أمراً لا بد منه يشترك فيها الناس جميعا وبهذا تهون المصيبة.

بكاء الدم أو البكاء الدموى

يبكى الشاعران بكاء دمويا وهذا يتجلى فى أشعارشاعرين الرثائية. أبدع الخاقانى

فی هذا الفحوی غیر أن شعر ابن نباتة فی هذا المعنی خال من الإبداعات فهو حذا حذو المتقدمین تقلیدا صرفا، نجد الخاقانی یقول:

چون سیاهی عنب کآب دهد سرخ، شما　　سرخی خون ز سیاهی بصر بگشایید

(الخاقانی، ١٣٦٨ش: ١٥٨)

لتتدفق عیونکم السوداء الدموع الدامیة کما یقطر العصیر الأحمر من العنب الأسود.

یعتبر هذا النوع من المعنی جزءا لا ینفک من الشعر المملوکی عامة وشعر ابن نباتة المصری خاصة وینبع هذا من تقلیدهم من الشعراء العباسیة وغیرها من أدوار الشعر العربی. انظر الشاعر ابن نباتة کیف یسیل دمعه الدموی:

یسیلُ أحمرُ دمعی لمَّا تذکَّرتُ خدّک

مازال مبیض دمعی داعیاً لدمعی　　حتّی بکیتُ ظلال الحسن بالشفق

(المصری، لاتا: ١٥٦)

إظهار العجز والیأس علی فقد الأولاد

نری إظهار العجز والیأس من فقد الأعزاء فی کل المراثی فلا یستثنی منها رثاء الشاعرین الفارسی والعربی. وهناک نوع من الیأس یستولی علی الخاقانی ویدعو إلی الاعتناء بحاله قائلا:

پشت من چون قلم توست که مادر بشکست　　که بدین پشت قباهای بطر برگیرم

چه نشینم که قدر سوخت مرا در غم تو　　برنشینم در میدان قدر درگیرم

در فراق تو از این سوخته تر باد پدر　　بی چراغ رخ تو تیره بصر باد پدر

(همان: ١٤٠)

من رسالات و دواوین وکتب سوخته ام　　دیده بینش این حال ضرر بگشایید

(همان: ١٥٦)

الشاعر یظهر عجزه وألمه ویأسه بسبب وفاة ابنه وفراقه ویشتکی من جور الدهر الذی ابتلاه بهذا البلاء العظیم ومن شدة الحزن یدعو علی نفسه فقدان البصر الذی لا یری الولد ولا یشاهده ویقول: لقد أحرقتُ رسائلی وکتبی ودواوینی فأعطوا البصیرة

لهذا الخاسر.

وانظر ابن نباتة كيف يظهر عجزه ويشعر بالعجز تجاه موت ولد له مات قبل أن يبلغ عاما. ها هو ابن نباتة يقول:

يا راحلاً مِن بعدِ ما أقبلت مخايـلٌ للخـيرِ مرجـوّه
لم تكتمـل حولاً وأورثتنى ضعفـاً فلا حـولَ ولا قوّة

(المصرى، لاتا: ٥٤٦)

نتائج البحث

إن هذا البحث يقدم رؤية عن بعض وجوه التشـابه والافتراق فى مراثى الشاعرين، ومن أهم نتائج البحث:

اتجـه ابن نباتة المصر فى مراثيـه اتجاها حكميا بينما لا نرى هذه الميزة فى أشـعار الخاقانى الرثائية.

لقد كابد كلا الشاعرين معاناة فقد أولادهما ومرارة موتهم ودعيا إلى البكاء الكثير وصب العبرات على فقد أولادهما.

كل ما يسـيطر على رثاء الأولاد فى شـعر الخاقانى هو تعبـير عن الحزن والحداد ودعوة الجميع بالحداد على الفقيد؛ أى هو شـخص ذواتجـاه جمعى ويدعو الجميع إلى الحداد على الفقيد ومن جانب آخر يسيطر الاتجاه الفردى على رثاء ابن نباتة لأولاده.

تمتع الخاقانى بقدرة الشـعر والاتيان بالصـور الإبداعية التى لا نراها عند ابن نباتة وهو حذا حذو متقدميه فى هذا المجال.

تتجلـى مظاهر مختلفة مـن الثقافات الدينيـة والتاريخية والاجتماعية والفلسـفية والسـوقية فى مراثى الخاقانى لولده إلا أنه لا يتمتع شـعر الرثائى الأولادى لابن نباتة بهذه الميزة.

من أهم وجوه تشـابه الشـاعرين فى رثـاء الأولاد هى "البـكاء والتنهد"، و"موت الولد فاجعة"، و"تشـبيه الأولاد المتوفية بالمظاهر المختلفة"، و"الإصابة بالأرق"، و"عجز الإنسـان أمام القدر والموت اللأبدية"، و"الدعوة إلى التمرد من شدة الحزن"، و"الشعور

بالذنب"، و"اظهار العجز أمام حتمية الموت.

من أهم وجوه الافتراق الشاعرين فی رثاء الأولاد هی "الاتجاه فی الرثاء"، و"الأسلوب الخطابی"، و"عمق الرثاء"، و"القدرة فی استعمال الصور الإبداعية".

المصادر والمراجع

استعلامی، محمد. ١٣٨٧ش. نقد وشرح قصائد الخاقانی. طهران: نشر زوار.

الاعتمادی، غلام حسین. (١٣٩٠ش). انسان ومرگ، درآمدی بر مرگ شناسی. چاپ سوم. تهران: نشر مرکز.

امامی، نصرالله. (١٣٦٩ش). مرثیه سرایی در ادبیات فارسی (تا پایان قرن هشتم). اهواز: انتشارات دفتر مرکزی جهاد دانشگاهی.

ثابت، عبدالرحیم. (١٣٩٢ش). «روان‌شناسی ماتم‌زدگی در مرثیه‌های خاقانی». نشریه ادب وزبان دانشکده ادبیات وعلوم انسانی دانشگاه شهید باهنر کرمان. سال ١٦. شماره ٣٤. پاییز و زمستان. صص

حسن غنیم، محمد عبدالقادر. (لاتا). رثاء الأبناء فی الشعر العربی حتی نهاية العصر العباسی. أطروحة الدکتوراه.

خاقانی، افضل الدین بدیل بن علی نجار (١٣٦٨ش). دیوان. تصحیح ضیاء الدین سجادی. چاپ سوم. تهران: انتشارات زوار.

الخطیب، حسام. (١٩٩٩م). آفاق الأدب المقارن. عربیا وعالمیا. دمشق: دار الفکر.

الزبیدی. (١٤٢٢ق). تاج العروس من جواهر القاموس. تحقیق عبدالکریم الغرباوی. الکویت: مؤسسة الکویت للتقدم العلمی.

زنکنه، داریوش. (١٣٨٩ش). «جستاری در سوگ سروده های خاقانی». فصل‌نامه علمی عمومی زبان و ادب فارسی (گرایش عرفان) ادبستان. شماره ٣. صص ١٣٠-١١١.

الزوزنی، الحسن بن احمد. (٢٠٠٦م). شرح المعلقات السبع. تحقیق: محمد الفاضلی. ط١. طهران: موسسة الصادق للطباعة والنشر.

سالم، عبدالعزیز الرشید عبدالعزیز. (١٩٨٨م). شعر الرثاء العربی واستنهاض العزائم. الکویت: وکالة المطبوعات.

صفا، ذبیح الله. (١٣٦٣ش). تاریخ ادبیات فارسی. ط ٦. طهران: نشر فردوسی.

ضیف، شوقی. (٢٠٠٧م). تاریخ الادب العربی، عصرالدول والإمارات. الجزء الخامس. القاهرة: دار المعارف.

ضيف، شوقى. (۱۹۷۹م). الرثاء.ط۱۰، مصر: دارالمعارف.
علـوش، سـعيد. (۱۹۸۷م). مدارس الأدب المقارن. دراسـة منهجية. الطبعة الأولـى. لامک: المركز الثقافى العربى.
الفاخورى، حنا. (١٤٢٧ق). الجامع فى التاريخ الادب العربى. ج١. بيروت: ذوى القربى.
القيروانى، ابوعلى الحسن بن رشيق. (۱۹۸۸م). العمدة فى محاسن الشعر وآدابه. تحقيق: محمد قرقزان. الطبعة الاولى. بيروت: دار المعرفة.
القرطاجنى، حازم. (لاتا). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة. ط ۳. بيروت: دار الغرب الإسلامى.
المصرى، ابن نباتة. (لاتا). ديوان ابن نباتة المصرى. بيروت: شركة علاء الدين للطباعة والتجليد.
كزازى، ميرجلال الدين. (١٣٦٨ش). گزارش دشـوارى‌هاى ديوان خاقانى. الطبعة الأولى. طهران: نشر مركز.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی